

میزان الجرح والتعديل*

٢

(جواب شبهة)

رب قائل يقول : كيف لا يفسق هؤلاء وقد خالفوا بتأويلهم
النصوص من الكتاب والسنة ؟

فنقول : قدمنا ما يمنع تسميتهم فسقة شرعا ولغة ، ولذا جاء في مسلم
الثبوت — من كتب الاصول — ما مثاله : لك ان تمنع كون المتدين
من اهل القبلة فاسقا بالعرف المتقدم الذي عليه القرآن الكريم — وهو
شموله للكافر والمؤمن المرتكب الكبيرة اه وقال حجة الاسلام
الغزالي في الاحياء : مهما اعترضت على القدرى في قوله « الشريس من
الله » اعترض عليك القدرى ايضا في قولك « الشر من الله » وكذلك في
قولك « ان الله يرى » وفي سائر المسائل ، اذ المبتدع محق عند نفسه ،
والحق مبتدع عند المبتدع ، وكل يدعي انه محق وينكر كونه مبتدعا اه
وبالجملة فهم يخافون بنظر غيرهم ، واما عند انفسهم فغيرهم هو المخالف
وهم الموافقون ، وحاشا للمؤمن عالم ان يخالف كتابا او سنة عامدا متعمدا ،
فهم مجتهدون مثابون اذ لم يألوا جهدا فيما ذهبوا اليه ، وان كنت لا تقول
به وترى الحجة فيما انت عليه ، على ان ما تسميه انت نصا هم يرونه ظاهرا ،
اذ دعوى نصية الشيء ليست بالامر اليسير — لان النص هو القاطع

في مضاه ، المفيد لليتين في فواه ، وهذا انما يكون في محكمات الدين ،
واصوله التي لم يختلف فيها الفرق كلها ، واما ما عداها فكلها ظواهر ، وقد
يراهما البعض باجتهاده نصا ، وليس اجتهاد مجتهد باض على اجتهاد آخر .
وعلى من يريد تحقيق هذا ان يراجع مطولات الخلاف ، ويطالع ما أخذ
المجتهدين ، ومن اتفق ما الف في هذا الباب كتاب (رفع الملام ، عن
الائمة الاعلام) لشيخ الاسلام تقي الدين ابن تيمية رحمه الله فانه جدير لو كان
في الصين ان يرحل اليه ، وان يمض بالنواجذ عليه ، نرحم الله من اقام
المعاذير للائمة ، وعلم ان سعيهم انما هو الى الحق والهدى - كما اسلفنا
وبالله التوفيق

(جواب شبهة اخرى)

يرغم بعضهم بأنه : يحتمل ان يكون الراوي تحمل عن المبدع قبل
تمذهبه بذلك المذهب ، وهذا جهل بمذاهب الرواة ، ومشارب الرجال ،
فان كل من الف في نقد الرجال لم يذكر في المشاهير منهم انه كان
على مذهب كذا ، او ان الحافظ القلاني تحمل عن فلان قبل تمذهبه
بمذهب كذا ، ومثل هذا انما يؤخذ عن النقلة الاثبات كالمصنفين في
احوال الرجال ، ولا يمكن الاجتهاد فيه بحال من الاحوال ، ولذا تراهم
يقولون في ترجمة الراوي : كان خارجيا . ونحو ذلك قولوا واحدا .
وحبذا ان يكون ما ذكره ماثورا عن امام مؤرخ مشهور . واما القول
بالاحتمال ، فاذا فتح اورث الاضمحلال ، لكل ما يعول عليه في
الاستدلال ، - ومثل ذلك ما يقال : يحتمل ان يكون روى عنه وهو غير

عالم بما هو عليه من فساد العقيدة فهذا يزيد عما قدمنا من الجهل بمذاهب الرواة تجهيل أئمة الحديث ، ووصيهم بما هم برآء من الغباوة والبلاهة ، وأنهم يحملون عمن لا يعرفون مذهبه ولا مشربه ، وأنهم كخاطب ليل ، نعوذ بالله من ذلك . وأي عاقل يجراً على مثل ذلك في البخاري صاحب لتاريخ في الرجال ؟ بل من دونه من ارباب السنن وغيرهم ممن تسكلم في الجرح والتعديل ، وميز بين صحيح الحديث وضعيفه - لثقة رجاله أو ضعفهم . وهل يعقل في صحاح ، وسنن ، ومسانيد ، وموطآت ، عليها مدار أدلة الاحكام ، وحجج الفروع ، صنفت على الاسانيد المنوعة والمكررة بالاسماء والسكنى والاقاب = ان يكون جامعوها لا يدرون مشرب رجالها ولا ما يتحملونه - مع ان العامي والامي نراه اذا خدم ظالماً لا يخفى عليه مشربه ومذهبه ورأيه وفكره . فكيف بعالم مؤلف ، لا بل بامام مجتهد يستنبط الاحكام من الاحاديث ويترجم عليها ، ويزاحم من تقدمه من الائمة في التخريج والرد والاستدراك والتفريم والتأصيل ؟ الا يدري مذهب رجال اسناده ونحلتهم - وهم عمدته في الاستدلال ، وركنه في الاحتجاج ؟؟ بلى اثم بلى ! وهو اجلى من ان يبرهن عليه ، او يرد على من كابر فيه . ولقد كان علم الجرح والتعديل ، ومعرفة طبقات الرجال وتراجهم من اوائل ما يدريه طلاب الحديث ومريدو التحمل عن الحفاظ ، ولكن من اين يدري ابناء هذا الجيل ، ما كان عليه السلف من فنون التصصيل ، وقد اندرست تلك العلوم ، ولم يبق منها ولا الرسوم ، فاننا لله وانا اليه راجعون

وأما قول بعضهم : فكيف يستدل باخراج الشيخين على عدم جواز

المعاداة - مع قيام هذه الاحتمالات؟ وكيف يسوغ للانسان ان يتمسك
بالمحتمل الذي لا تقوم به حجة؟ فقد علمت سقوط هذه الاحتمالات ،
وانها اشبه بالاوهام والخيالات ، والتلاعب في الحقائق الواضحات .
والمحتمل الذي تقوم به حجة هو الذي يتطرق اليه احتمال معقول ، أو تأويل
مقبول ، جار على قوانين التأويلات ، والاوجه المرووفة في نظائره .
واما احتمال في مقابلة حقيقة ثابتة ، وأمر واضح ، فلا يقال له احتمال ،
وانما هو تلاعب وهوس خيال ، يقول أئمة الجرح والتعديل في كتبهم عن
راو - ممن خرج له الشيخان أو احدهما - انه شيعي ، أو خارجي ، أو قدرى ،
أو مرجي ، ثم يأتي من يريد ان ينقض هذا بالاحتمال ، وهو لم يضرب
في هذا الفن بسهم ، ولا يمكن ان يرجع اليه في رأي ولا علم ، كيف
لا وقد اجتمعوا على الرجوع الى أئمة الفن في هذا الباب ، لانه أمر لم
يبق فيه مجال ولا نظر ولا احتمال ، وهذا من البدييات الثنية عن
الحجة والبرهان

(رفع وهم في عبارة للبخاري)

وأما زعم ان قول البخاري في جزء رفع اليدين : كان زائدة لا يحدث
الا أهل السنة اقتداء بالسلف : يخالف ما استنبطناه - فمجيب جداً لانه
لا شاهد فيه ، ولا يناسب بحثنا حتى يخالفه ، لان زائدة رحمه الله كان
يتمتع عن تحديث غير أهل السنة - أي إسماعهم الحديث واقراءتهم اليه -
وذلك في التلاميذ منهم والمبتدئين في طلب الحديث الذين يغنون التلقي
والسماع - وقد اتسوا الى غير مذهب أهل السنة ، فكان زائدة يجافي
تحديثهم اقتداء بمن رآه من سلفه كذلك ، ولا منازعة في الوجدانيات

ولا يكاف المرء ما لا يطيقه ، فمن كانت نفسه لا تحب إسماع من كان كذلك ،
فله الخيرة ولا جناح عليه في ترك الإسماع ، لاسيما لتلاميذ لم يتأهلوا بعد
للنظر والوقوف على التحقيق ، فثلمهم انما يكون مقلداً لا مجتهدا . وأما
حفاظ شيوخ ، ذوو علم ورسوخ ، أو توا من العلم والفضل ما أهلهم للتحصل
عنهم ، والاستفادة من علمهم ، بحيث طارت شهرتهم ، وتوتوا على غيرهم ،
فلا دخل لكلام زائدة فيهم ، ولا يشملهم مشربه ، وهكذا نحن نقول :
لا ينبغي لاستاذ ان يشرح صدره لتلاميذ اغرار ، انحلوا غير ما يراه الحق
بدون نظر أو فكر ، بل تقليدا أو اتباعا لكل ناعق

وأما من بلغ مرتبة الرسوخ والافادة ، وكان على جانب عظيم من
العلم ، وانحل ما انحل عن اجتهاد ونظر ، فلا يرتاب أحد في العناية بالخذ
عنه ، والتقي منه ، كما فعل الأئمة امثال البخاري واشياخه ، فكلام زائدة
من وادٍ ، وما نقوله من وادٍ آخر . وهكذا يقال فيمن حكى عنهم من
المرجئة من أهل بلخ ، وأما قوله : ولقد رأينا غير واحد من أهل العلم
يستيبون أهل الخلاف ، والا اخرجوهم من مجالسهم . فهو يعني به من ذكرناه
من التلاميذ لقوله « والا اخرجوهم » وهل يخرج الا المتعلم الضعيف في
العلم والفهم ، المتطفل على ما ليس له بأهل ؟ وشتان بين من يخرج من مجلس
الحديث من أهل الخلاف وبين من يرحل اليه ويحمل عنه منهم - كرجال
الشيخين وغيرهما من هؤلاء ، ولو اطرده الابتعاد عن هؤلاء أو إبعادهم لما
تلقى عنهم امثال الشيخين ، وخذل اسماءهم ومرويتهم في أصح الكتب بعد
التنزيل الكريم . وقد يكون مراد البخاري بأهل الخلاف أهل الرأي
جموداً وتقليداً المؤثرين آراء الفقهاء على صحيح السنة - لان كتابه المذكور

وهو « جزء رفع اليدين » في مناقشة أهل الرأي وحجهم بصحيح السنة على رأيهم . وقد تجافى أرباب الصحاح الرواية عن أهل الرأي (١) فلا تكاد تجد اسماً لهم في سندهم كتب الصحاح أو المسانيد أو السنن، وإن كنت أُعِدُّ ذلك في البعض تعصياً، إذ يرى المنصف عند هذا البعض من العلم وانقبه ما يجدر أن يحمل عنه، ويستفاد من عقله وعلمه، ولكن لكل دولة من دول العلم سلطة وعصبة ذات عصبية، تسمى في القضاء على من لا يوافقها ولا يقلدها في جميع ما تبها، وتستعمل في سبيل ذلك كل ما قدر لها من استطاعها كما عرف ذلك من سب طيقات دول العلم، ومظاهر ما أوتيته من سلطان وقوة . ولقد وجد لبعض المحدثين تراجم لأئمة أهل الرأي يُنجبل المرء من قرائنها فضلاً عن تدوينها، وما السبب إلا تخالف المشرب على توهم التخالف، ورفض النظر في المآخذ والمدارك، التي قد يكون مهم الحق في الذهاب إليها، فإن الحق يستحيل أن يكون وقفاً على فئة معينة دون غيرها، والمنصف من دقق في المدارك غاية التدقيق ثم حكم بعد .

(١) كالامام أبي يوسف والامام محمد بن الحسن فقد لئبها أهل الحديث - كما ترى في ميزان الاعتدال، ولعمري لم يصفوهما وهما البحران الزاخران، وآثارهما تفهد بسمة علمها وتجرهما، بل بتقدمها على كثير من الحفاظ . وتأهيك كتاب الحراج لأبي يوسف وموطأ الامام محمد . نعم كان واح جامعى السنة بمن طوف البلاد، واشتهر بالحفظ، والتخصص بعلم السنة وجمعها، وعلماء الرأي لم يشتهروا بذلك لاسياً وقد اشيع عنهم أنهم يحكمون الرأي في الأثر، وإن كان لهم مرويات مسندة مروثة، رضي الله عن الجميع، وحشرنا وإياهم مع الذين هم الله عليهم

ومما نمدته تعصبا ما حكاه الامام البخاري في «جزء رفع اليدين» المذكور من اخراج اهل الخلاف من مجالس الحديث حتى يستتابوا، وهل قاضي مكة سليمان بن حرب على الحبر على بعض علماء الرأي من الفتوى، وما ذلك الا من سلطة دولة الاثريين وقتئذ، وقيامهم بالتشديد ضد غيرهم، ونبذ التسامح الذي كان عليه الصحابة والتابعون في ان يفتي كل بما يراه بعد بذل جهده في المسألة دون تعنيف او اضطهاد - لا جرم ان صفة كل قوم آنسوا من انفسهم قوة وسلطانا ان يستعملوا لبث مذهبهم ونشره هيمنة الحاكم وسيطرته، ولا سيما اذا كان منهم وعلى شاكلتهم وهو مستبد في علمه وما يرضيه فحدث هناك ولا حرج. انظر الى القدرية لما دالت لهم دولة العلم ايام الامون ماذا جرى منهم مع من لم يقل بمشربهم ولم يستجب لدعوتهم، فقد ضربت أمة واهينوا وسجنوا الاعوام وأوذوا مما دونه التاريخ واحصاه على هؤلاء المتعصبين، وكان نقطة سوداء في تاريخ حياتهم، وان كانوا يزعمون مقاومة الحشو والجمود، وتنوير الافهام بعلوم الاوائل مما اخذوا بتربيته، وجهدوا في نشره، الا ان الغلو كان رائداهم، والبطش قائدهم، ولكن هي السكرة، التي يذهب معها صحيح الفكرة (اعني سكرة الدولة والغلبة، والسلطة والقوة) فما من دولة الا ونقم عليها شيء من ذلك - كما يدريه من سبر اخبار الدول وفلسفة حياتهم، ومظهر آرائهم وآمالهم

وكذلك قل عن الفتنة التي فر من اجلها امام الحرمين من العراق الى الحجاز حينما دالت دولة الخنيفة، وثارت عصيتهم على الشافعية

والاشعرية. قال التاج السبكي في طباقته^(١) في ترجمة الامام ابي سهل الشافعي: انه لما بلغ من سمو المقام ان ارسل اليه السلطان الخلم وظهر له القبول عند الخاص والعام ، حمله الاكابر وخاصة، فكان يخصمهم ويتسلط عليهم (قال) فبدا له خصوم واستظهروا بالسلطان عليه وعلى اصحابه (قال) وصارت الاشعرية مقصودين بالاهانة والمنع عن الوعظ والتدريس ، وعزلوا من خطابة الجامع - (قال) وتبع من الخففة طائفة اشربوا في قلوبهم الاعتزال والتشيع ، فخلوا الى اولي الامر الازراء بمذهب الشافعي عموماً ، وبلاشعرية خصوصاً - (قال) وهذه هي الفتنة التي طار شررها ، وطال ضررها ، وعظم خطبها ، وقام في سب اهل السنة خطيبها ، فان هذا الامر ادى الى التصريح بان اهل السنة في الجمع ، وتوظيف سبهم على المنابر ، وصار لابي الحسن الاشعري بها اسوة بعلي بن ابي طالب رضي الله عنه ، واستعلى اوثمك في الجامع ، فقام ابو سهل في نصر السنة قياماً مؤزراً ، وتردد الى المسكر في ذلك ولم يقد ، وجاء الامر من قبل السلطان (طغرلبك) بالقبض على الرئيس الفراتي ، والاستاذ ابي القاسم القشيري ، وامام الحرمين ، وابي سهل ابن الموفق ، وتفيهم ومنهم عن المحافل . وكان ابو سهل غائباً في بعض النواحي ، فلما قرأ الكتاب بتفيهم اغرى بهم القاعة والأوباش ، فاخذوا بالاستاذ ابي القاسم القشيري والفراتي يجرؤنهما ويستخفون بهما ، وحبسوا بالقمندر . (واما امام الحرمين

(١) في ترجمة محمد بن هبة الله بن محمد بن الحسين الامام الكبير ابو سهل

٩٢٠ تعصب علماء المذاهب وأهلها بعضهم على بعض (المارح ١٢ م ١٥)

فانه كان احس بالامر فاخفى وخرج على طريق كرمات الى الحجاز
وبقيا في السجن متفرقين اكثر من شهر

وفي شرح الاقناع^(٩) قال ابن عقيل : رأيت الناس لا يعصمهم من
الظلم الا العجز ، ولا أقول الموام بل العلماء - كانت أيدي الخناذة مبسوطة
في أيام ابن يونس ، فكانوا يستطيون بالبغي على أصحاب الشافعي في الفروع
حتى ما يمكنهم من الجهر بالبسطة والقنوت - وهي مسألة اجتهادية - فلما
جاءت أيام النظام ، ومات ابن يونس وزالت شوكة الخناذة ، استطال
عليهم أصحاب الشافعي استطالة السلاطين الظلمة ، فاستمدوا بالسجن ،
وآذوا الموام بالسمايات والفقهاء بالنبد بالتجسيم ، (قال) فتدبرت أمر
الفرقيين ، فاذا بهم لم تعمل فيهم آداب العلم ، وهل هذه الا افعال الاجناد
يصولون في دولتهم ، ويلزمون المساجد في بطالتهم ، اه

ولدينا من القصص في عجائب ما روى التاريخ من التعصب مالا يسنا
الا امساك القلم عن نشره ايقاع على هذه البقية الباقية ، وفي الاشارة ما ينفي
عن الكلم ، ولا حول ولا قوة الا بالله

وكل ذلك من التفرق الذي نهى عنه الدين ، لما يستتبعه من الازواء
التي تعمل في اساسه المتين ، ويكفي ما جنت وتبجني الامة من وبلائه
الى هذا الحين ، حتى فشلت وذهب ريحها امام اعدائها الكافرين ،
والمستعان بالله

(٩) صفحة ١٣٠٩ من مطولات كتب الخناذة في الفروع